الفصل الأول
القدس في التاريخ القديم

القدس جزء من أرض فلسطين. ودراسة أرض فلسطين كلّها استندت ومازالت تستند على منهجين متباينين في الأهداف والغايات وفي الوسائل والأدوات.

المنهج الأول يقوم أساساً على معطيات علم الآثار بمعزل عن مدونات التوراة. وفي هذا المنهج يستند الباحثون على مكتشفات تل العمارنة بمصر واللوحات البابلية والآشورية في العراق، والآثار والمكتشفات في رأس شمرا وإيبلا في سوريا وبعض المكتشفات الأثرية في فلسطين.

ويقوم المنهج الثاني على إخضاع كل المكتشفات لمقولات التوراة. وهذا المنهج اتبعه غالبية المستشرقين والجمعيات الأوروبية المتخصصة بشؤون الأراضي المقدسة (فلسطين) ومما يُستدل، أن المنهج الاستشراقي سبق المنهج الآخر بسنوات طويلة، وهذا ما جعل الباحثين كافة يقعون تحت تأثيره وترديد ما يقوله. إلى أن بدأت المكتشفات الأثرية تعطي ثمارها وتدحض المزاعم الاستشراقية. وكان لمكتشفات رأس شمرا ـ أوغاريت ـ في شمال سورية الأثر الكبير في إلقاء الضوء على الشعب العربي الكنعاني، عاداته ومعتقداته وطبيعة حكمه، وما إلى ذلك من مكونات الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لديه.

وأضافت مكتشفات تل العمارنة في مصر أضواءً جديدة على العلاقة بين فلسطين والفراعنة في مصر.

وقد اكتشفت أيضاً ألواح في بابل ونينوى وغيرها من مناطق ما بين النهرين وأعالي الفرات، أظهرت العلاقات بين الإمبراطوريات المتعاقبة هناك مع فلسطين وشعبها.

ولما كانت فلسطين تقع وسطاً أو طريقاً بين حضارة الرافدين وسوريا، وبين حضارة وادي النيل، كان لابد لهذه المنطقة من التأثير المباشر في الصراع العسكري والتوسعي والنفوذي الدائر بين الإمبراطوريات القديمة.

وكون فلسطين تقع على ساحل المتوسط المفتوح أمام الشعوب الأوروبية القديمة كاليونان والرومان كان لابد من تعرضها أيضاً للتأثر والتأثير.

وبمعنى آخر فالناظر إلى مكان فلسطين جغرافياً يرى أنها تصبح مركز التقاء المتصادمين من أبناء الشعوب القديمة، وهكذا كان شأنها فعلاً حسب ما منحتنا إياه المدونات الأثرية في كثير من مناطق الشرق القديم. وهذا أيضاً ما يدلل عليه تاريخ الصراع المتأخر، أي بعد الميلاد وصولاً إلى العصر الحديث.

وقد دلت معطيات التاريخ وعلم الآثار أن الكنعانيين العرب اعتمدوا في توسعهم العمراني ونظامهم الاجتماعي السكني على بناء المدن الممالك. فكل مدينة كانت تشكل مملكة صغيرة. وفي بعض الحالات يقوم تحالف بين هذه الممالك برئاسة أحد الملوك، وهذا ما أشارت إليه مدونات أوغاريت التي تحدثت عن تحالف للممالك الكنعانية حوالي 1200 قبل الميلاد.

وقد انتشرت المدن الكنعانية الكبيرة والصغيرة في أنحاء فلسطين، ولاسيما وسطها وشمالها، ويرى بعض الباحثين أن المدن الكنعانية كانت عبارة عن مستوطنات منقسمة إلى دويلات صغيرة محصنة على غرار دويلات المدن في جنوب العراق.

وكانت هذه الدويلات في نزاع وحروب فيما بينها في الغالب، فاضطر بعضها إلى التمركز في سفوح جبال لبنان للاحتماء بها. وهكذا نشأت أهم المدن الكنعانية في سفوح الجبال على السواحل. وقد أطلق اليونانيون على سكان الجبال من الكنعانيين الفينيقيين، وكانوا يمارسون التجارة والصناعة في حين أن المدن الداخلية

كانت تحترف الزراعة، وخاصة زراعة الأشجار في الغالب. وكان الفينيقيون يتسمّون بالكنعانيين، وظلوا على هذه التسمية حتى عهد الرومان[1].

وجاء في مخطوطات تل العمارنة أن الأمير المصري الفرعوني سنوحي زار أرض كنعان عام 2000 ق.م، ووصف أرضها بقوله: «فيها العنب والتين وفيها الخمرة الغزيرة كالماء، وفيها العسل المتدفق والزيتون الكثيف، وعلى أشجارها تنبت كل أنواع الثمار»[2].

وإشارة الأمير (سنوحي) تدل على أن فلسطين أرض مزدهرة بالزراعة وتدل على أن سكانها كانوا مزارعين ومربين للماشية وتجاراً. فالتنقيبات الأثرية التي اكتشفت في هذه الأرض تدل على وجود أسلحة من البرونز والنحاس المجلوب من بلاد الأناضول.

وقد وردت أسماء كثير من المدن الكنعانية القديمة في كتابات تل العمارنة والكتابات الآشورية.

ومن هذه المدن عكّو ـ عكا الحالية. وأكزيب. الزيب الحالية. وقانة وصور وصرفند وصيدون (صيدا).

وقد وردت أسماء فلسطينية قديمة في مكتشفات تل العمارنة المصرية...

فمدينة نابلس الحالية حرف اسمها على اسم يوناني (نيابوليس) الذي يعني المدينة الجديدة. ويُذكر أن الكنعانيين اختاروها عاصمة لهم في وقت من الأوقات؛ بسبب وقوعها في وسط فلسطين، وكان سكانها يتألفون من الحويّين وهم قبيلة من القبائل العربية الكنعانية، وقد أطلق عليها اسم شكيم[3].

أما عسقلان فهي أهم مدينة بناها الفلسطينيون القدماء، وقد حصنوها أمام غزوات اليهود عشرات السنين. وتقول بعض المصادر المقربة من التوراة إنها وقعت

---

(1) Universal. Encyclopedia. Vol. 11, p651 نقلاً عن كتاب العرب واليهود في التاريخ، د. أحمد سوسة، ص19.

(2) روجيه غارودي. فلسطين أرض الرسالات السماوية، ص41.

(3) عبد الحكيم ذا النون. تاريخ فلسطين القديم، ص42.

بعد ثلاثمائة سنة من إنشائها في يد النبي داود عليه السلام. وتقول بعض الدراسات استناداً على ما جاء في التوراة أن داود هاجمها بأسلوب الخداع والحيلة واستولى عليها، لكن الفلسطينيين أعادوها وحرروها مرة أخرى.

وإلى جانب عسقلان أسس الفلسطينيون أربع مدن كبيرة وهي غزة وجت وأسدود وعقرون، وقد كانت كلها على الساحل عدا مدينة (جت) فقد كانت داخلية قياساً بالمدن الساحلية.

وقد انتشرت المدن والقرى الزراعية الصغيرة في كل أنحاء فلسطين. وعندما كان يداهمها الغزاة كان السكان يلجأون إلى المدن المسوّرة والحصون حيث يصعب على الغزاة اقتحامها والفتك بسكانها.

ومدينة (جازر) يعود تاريخها إلى ثلاثة آلاف عام وتعني ـ نصيب ـ وقد عجز الغزاة العبرانيون عن احتلالها بسبب قوة تحصينها ودفاع أهلها الكنعانيين عنها.

جت: وتعني معصرة، وتقع في الداخل، وقد سكنها العناقيون، ويُقال إن جوليات الفلسطيني الجبار قد ولد فيها. وكانت حصناً من حصون الفلسطينيين، وموقعها الحالي هو تل يدعى عراق المنشية على بعد 10 كم غرب بيت جبرين، وكان ملكها يدعى أخيش وهو ابن (معوك) الذي حكمها قبله. والتوراة تأتي على ذكرها مراراً وتقول إن داود هرب إليها مرتين، ففي المرة الأولى تظاهر داود بالجنون لخوفه على نفسه من القتل، وفي المرة الثانية لجأ داود إلى أخيش فرحب به بسبب العداوة بينه وبين شاؤول ملك العبرانيين. وتقول مصادر التوراة إنه لما اجتمع الفلسطينيون للحرب ضد شاؤول أراد أخيش أن يصطحب معه داود للحرب ضد شاؤول لكن رؤساء الفلسطينيين عارضوا ذلك، لكون داود ينتمي إلى الإسرائيليين ويخافون من غدره.

غزة: وهي أبعد مدينة فلسطينية إلى الجنوب وواحدة من أقدم عشر مدن في العالم. سكنها الكنعانيون بعد أن بنوها. وكان الإسكندر المقدوني قد نكّل بأهلها، لأنهم رفضوا الاستسلام إلا بعد حصار طويل، وقد هدم أسوارها.

يافا: وهو اسم كنعاني معناه ـ جمال ـ وهي مدينة قديمة تقع على المتوسط وعلى بعد 35 ميلاً إلى الغرب الشمالي من القدس، وتقع على رأس عُلوُّه 116 قدماً. يشرف من قمته على منظر بهيج من شاطيء البحر. وتعد يافا من أقدم المدن في العالم. وقد احتلها تحوتمس الثالث فرعون مصر، وذكرت في لوحات تل العمارنة، وكانت مركزاً إدارياً محلياً من عام 1550 إلى 1250 ق.م ولم تخضع المدينة للغزو العبراني حتى جاء داود فاحتلها حسب قول التوراة.

أريحا: وفي الكنعانية يريحو وتعني مدينة القمر. وهي من أقدم المدن في العالم باقية إلى هذا الوقت. ومن المعلوم أن أحد آلهة الكنعانيين يدعى ياريح أو ياريخ وهو إله القمر.

شوتم: وهي مدينة كنعانية تقع مقابل جبل جلبوع وهي قرية سولم الحالية.

صفاة: ومعنى صفاة (برج حارس). وهي مدينة كنعانية تقع في جنوب فلسطين عند حدود آدوم.

عكا: وفي الكنعانية عكو. ومعناها رمل ساخن وهي إحدى أقدم مدن الكنعانيين، وقد اتخذوها قاعدة عسكرية لهم واستفادوا من خليجها.

عمورة: ومعناها غرق. وهي بلدة كنعانية تقع في غور الأردن.

عناثوث: وهي جمع عناث وهي مدينة كنعانية على بعد ميلين ونصف من القدس واسمها الآن عناتا.

قرية أربع: تعني كنعاني اسم مدينة أربع واسمها المشهور حبرون. وسميت كذلك لأنها تألفت من أربعة أحياء. وقد استخدم الصهاينة الاسم نفسه ـ كريات أربع.

قرية سنة: ومعناها مدينة النخل وهي مدينة كنعانية قديمة.

بعاريم: ومعناها مدينة الغابات وهي مدينة كنعانية احتلها الجبعونيون.

قطرون: وهي مدينة كنعانية بقي فيها الكنعانيون على الرغم من الغزو العبراني، وهي الآن قرية تل الغار، وتقع جنوب حيفا بسبعة أميال.

لُوَز: وهي مدينة كنعانية معناها لُوز ثم دعيت بعد ذلك بيت إيل وهي قرب القدس.

مادون: وهي مدينة كنعانية ومعناها خصومة وكان يحكمها ملك، ويرجح أنها قرية مادين.

مجدو أو مجدون: وهي مدينة كنعانية يدعى ملكها سيسرا، وهذا الملك ذكر في التوراة ومكانها اليوم هو تل المتسلم. وأثبتت الكشوفات أن آثارها تعود إلى أربعة آلاف عام ق.م، وتدل نقوش المدينة على الثقافة العالية والتحضر الراقي اللذين تميز بهما الكنعانيون.

بعشترة: مدينة كنعانية تعني بيت عشتاروت وهي مدينة في منطقة بيسان.

بيت عناة: وهي مدينة كنعانية تعني بيت الإلهة عناة، وهي اليوم قرية تبعد ثلاثة عشر ميلاً شرق عكا.

عنوت: ومعناها بيت الإلهة عناة، وهي اليوم تبعد حوالي اثني عشر ميلاً شرق الجليل واسمها اليوم بيت عانون وهي غير بيت عناة.

جبعون: وكانت المدينة الرئيسة للحوّيين من أهل كنعان.

جرار: وهي مدينة فلسطينية في الجنوب تقع على بعد ثمانية أميال جنوب شرق غزة، سكانها الفلسطينيون، وأتى إليها النبي إبراهيم مع ابنه إسحاق بسبب الجوع، وكان ملكها أبيمالك حسب ما تقوله التوراة. وموقعها الآن على بعد 19 ميلاً إلى الجنوب الغربي من بيت جبرين.

حاصور: وهي عاصمة مملكة الكنعانيين في شمال فلسطين. وكان يحكمها ملك يدعى يابين ثم حكمها ملك آخر بالاسم نفسه، وربما كانت اليوم تل القدح على بعد أربعة أميال غرب جسر بنات يعقوب، وقد اكتشفت بقايا المدينة من العصور الكنعانية.

حبرون: وسبق ان تحدثنا عنها وهي مدينة الخليل، كان أحد ملوكها الكنعانيين يدعى هدهان، وقد تحالف مع أربعة ملوك ومع أدوني صادق ضد الغزاة الذين كان يقودهم يوشع بن نون وذلك حسب نص التوراة.

دُور: وهي مدينة كنعانية ومعناها مسكن، وهي على ساحل المتوسط تبعد مسافة ثمانية أميال شمال بلدة الطنطورة الساحلية قرب حيفا.

أسدود: ومعناها القوة أو الشدة أو الحصن. وهي إحدى مدن الفلسطينيين الخمس الرئيسية. وكان الإله الرئيس فيها هو (داجون) إله الحبوب والمحاصيل. ظل العناقيون فيها حتى بعد الغزو العبراني لجنوب فلسطين. وقد انتصر الفلسطينيون على الغزاة في إحدى المعارك وحملوا معهم ما يسمى تابوت العهد أو تابوت الرب إلى أسدود ووضعوه في هيكل معبد داجون. وتقع المدينة في منتصف الطريق بين غزة ويافا.

القدس أو أورشاليم:

إن أول اسم أطلق على القدس هو يبوس نسبة إلى اليبوسيين الكنعانيين الذين نشأوا في الأساس في قلب الجزيرة العربية، ثم نزحوا عنها مع مَن نزح حوالي 3000 ـ 2500 ق. م، ويقال إن الملك سالم اليبوسي بناها وأقام تحصيناتها. وقد كان أول من اختطها من ملوك اليبوسيين (ملكي صادق) الذي عرف عنه أنه كان محباً للسلام حتى أُطلق عليه ملك السلام ومن هنا جاء اسم أور سالم. وعرفت المدينة باسمها الكنعاني أور سالم. ويشير الأستاذ أولمستر الخبير بتاريخ فلسطين القديم أن الكنعانيين وضعوا أول شريعة في شكيم (نابلس) ثم نقلت إلى القدس ونقل إليها تشريعها.

وقد ورد اسم أورشليم (بأور سالم) في الكتابات الكنعانية التي تعرف برسائل تل العمارنة. وهذه ترجع إلى القرن الخامس عشر ق. م أي ما قبل ظهور مدونات التوراة بأكثر من ألف عام. كما ورد اسم (يابيثي) في الكتابات المصرية الهيروغليفية. وهو تحريف لاسم يبوس، الاسم الذي كانت تعرف به أورشليم نسبة إلى سكانها اليبوسيين قبل عهد النبي موسى عليه السلام بعدة قرون، فتسمية أورشاليم التي

يحاول الصهاينة اليوم عدّها من الأسماء العبرية (بمعنى اليهودية) هي في الحقيقة كلمة كنعانية آرامية أصيلة، وردت بهذا الاسم في النصوص الكنعانية التي وجدت في مصر قبل ظهور النبي موسى عليه السلام، ثم بعد أن ظهر اليهود وتكونت لديهم اللهجة العبرية المقتبسة من الآرامية صار اليهود يسمونها بالعبرية (يروشلايم)، لذلك يرى بعض الباحثين أن الدعوى بأن اسم أورشليم عبري الأصل (بمعنى يهودي) دعوى باطلة لا تستند إلى مصدر تاريخي، بدليل ورود الكلمة في الكتابات الكنعانية قبل أن تتكون اللهجة العبرية والمدونات العبرية بأكثر من ألف عام كما تقدم، وقد ذكرها العرب في أشعارهم بهذه التسمية فقالوا (أروشاليم).

وقد جاء علماء الآثار ليثبتوا أن يبوس ـ القدس قد بنيت قبل عام 1800 ق. م.

تقول كاثلين م. كينون عالمة الآثار البريطانية (وقد أقام اليبوسيون على المنحدر الشرقي عدة مصاطب مدعّمة بأسس حجرية ضخمة. وهذه المصاطب تلفت النظر وتشكل عملية بناء ضخمة، ولكنها لم تكن مستقرة، لأن أي انهيار في الجدار الداعم يؤدي إلى انهيار البناء الذي خلفه)[1].

وفي نحو 2000 ق. م بنى أهلها اليبوسيون نفقاً تحت الأرض في الصخر يصل بين المدينة وعين أم الدرج، ليسهل وصول السقاة إليها، ويفيدهم أيضاً في أوقات الحصار، والنفق المذكور أقدم ذكر عثر عليه حول الحصول على المياه من العيون والآبار المجاورة لمدينة القدس.

ومنازل مدينة السلام بنيت من الحجارة وكانت كغيرها من منازل الكنعانيين صغيرة، تتألف من طبقة واحدة، لها في وسطها باحة وحولها الغرف، والمدخل في صدر الباحة وأحياناً يكون في وسطها بئر تتجمع فيه مياه الأمطار.

وكان السكان يأخذون حجارة البناء من الأحجار الكلسية البيضاء لليونتها وسهولة نحتها ولوجود هذه الحجارة في أعماق الصخور، تمكن اليبوسيون من حفر

(1) د. أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، ص: ب ب.

الأحواض الكثيرة والأنفاق مما كان له شأن في تاريخ بلدهم، وقدرت مساحة البلدة بين 16 ـ 18 فداناً، وقد أشارت بعض المصادر التاريخية إلى أن أشهر ملك حكم يبوس أو مدينة السلام هو المدعو ملكي صادق. ويقال إنه وجماعته كانوا من المعتقدين بالتوحيد، وقد قال في ذلك المؤرخ ابن العبري صاحب كتاب الأنس الجليل بتاريخ بيت المقدس والخليل: (وأما مدينة القدس فكانت أرضها في ابتداء الزمان صحراء بين أودية وجبال وهي خالية لا أبنية فيها ولا عمران، ومما حكي في تواريخ الأمم السالفة أن ملكي صادق نزل بأرض بيت المقدس وقطن بكهف في جبالها يتعبد فيه، واشتهر أمره حتى بلغ ملوك الأرض الذين هم بالقرب من أرض بيت المقدس بالشام وسدوم وغيرهما، وعدتهم اثنا عشر ملكاً فحضروا إليه، فلما رأوه وسمعوا كلامه اعتقدوه وأحبوه حباً شديداً ودفعوا له مالاً ليعمر به مدينة القدس، فاختطها وعمرها، وسميت بيت السلام، فلما انتهت عمارتها اتفق الملوك كلهم أن يكون ملكي صادق ملكاً عليهم، وكنوه بأبي الملوك فكانوا تحت طاعته واستمر حتى مات بها).

وقد أشار مؤلفو قاموس الكتاب المقدس 2/ 922: (والظاهر أن ملكي صادق كان محافظاً على سنة الله بين شعب وثني، ولذلك كان له الأسبقية على إبراهيم وعلى الكهنة الذين تسلسلوا منه).

وقد أشار كتاب التوراة إلى أن إبراهيم عليه السلام التقى ملكي صادق فجاء في سفر التكوين الإصحاح 14 ـ الآية 18 (وملكي صادق ملك شاليم أخرج خبزاً وخمراً وكان كاهناً لله العلي وباركه. وقال مبارك أبرام من الله العلي مالك السموات والأرض).

ويقال: اتخذ ملكي صادق لخليلِ الله إبراهيمَ بقعةَ الحرم الشريف معبداً له. فكان يقدم ذبائحه على موضع الصخرة المشرفة. وبذلك يكون العرب الكنعانيون أقدم من قدس وتعبد في هذه البقعة، صلوا فيها ودعوا ربهم عندها وذلك قبل أن يقوم سليمان بن داود ببناء ما يسمى هيكل الرب بما يقرب من ألف سنة.

وقد بنيت مدينة القدس القديمة على تلاك الضهور المطلة على قرية سلوان إلى الجنوب الشرقي من الحرم الشريف، محاطة بثلاثة أودية حيث يسهل الدفاع عنها. وفي أسفل الضهور تقع عين أم الدرج النبع الوحيد الذي يقع في القدس القديمة، ويرى العلماء أن البشر سكنوا هذه المدينة القديمة منذ العصر الحجري القديم، العصر الذي ينتهي في نحو عام 1200ق. م.

والوديان الثلاثة التي تحيط بالمدينة من جهاتها الشرقية والغربية والجنوبية هي:

1 ـ وادي جهنم: اسمه القديم قدرون. كلمة ربما كان معناها أسود وأما العرب فيسمونه وادي سلوان ووادي ستي مريم. ووادي النار. يبتدىء وادي جهنم على بعد 2500 متر إلى الشمال الغربي من القدس بالقرب من الشيخ جراح، ويسير إلى الجنوب الشرقي إلى أن يصل إلى زاوية السور الشمالية الشرقية. عرضه نحو 200 ياردة، ثم ينحدر بين جبل الطور والمدينة، ويستمر في انحداره إلى مار سابا حيث يسمى وادي الراهب، وأخيراً ينتهي في البحر الميت، وهناك يعرف بوادي النار، وتجري المياه في وادي سلوان هذا في الشتاء والربيع. ولكنه يجف في الصيف ويتصل عند طرفه الجنوبي بوادي الربابة.

وهناك وادي الربابة: ووادي الوادي ـ أو الواد. وهذه الأودية الثلاثة التي تحيط بالمدينة القديمة من جهاتها الثلاث، كانت تؤلف خطوطاً دفاعية طبيعية تجعل اقتحامها أمراً صعباً جداً في الأيام القديمة. أما من الشمال فكانت مكشوفة الأمر الذي جعل الغزاة على مر العصور يأتونها من الشمال.

وقد أجرى علماء الآثار حفريات خارج السور الجنوبي الشرقي من الحرم الشريف للبحث عن قلعة اليبوسيين. وكانوا على التوالي (وارن) عام 1860 و(بلس وديكي) عام 1890، وبعد ذلك بثلاثين عاماً قام (مكلستر) بتنقيبات ثالثة. وواضح من هذه الحفريات أن السفح الذي ينحدر إلى وادي سلوان حتى عين أم الدرج كان

موقعاً للسور الروماني الذي قام على أسس يونانية لا تتجاوز القرن الثالث ق . م كما عثر على الآبار والصهاريج التي تعود إلى العهد الروماني سنة 135م .

وفي عام 1960 بدأت الآنسة كاثلين كينون حفرياتها في الموقع الذي سبق أن أجرى الحفريات فيها ملكستر ومن سبقه من علماء . توسعت كينون في الحفر نحو الشمال إلى أن وصلت إلى سور يمكن إرجاعه إلى سنة 1800 ق . م وهو السور اليبوسي الذي وقف في وجه الغزو اليهودي فيما بعد .

وقد حرفت الأمم القديمة اسم مدينة السلام في نقوشهم التاريخية ؛ فذكرها الأكاديون أورسالم . وفي نقش مصري قديم يرجع إلى القرن التاسع عشر ق . م ورد اسمها فيه أورشاميم . وذكرها اليونان والرومان هيروساليم ، والغرب بـ جيروزاليم .

وقد تحدثت بعض المكتشفات الأثرية في مصر عن أرض كنعان وعن علاقات متعددة بين المصريين القدماء وسكان فلسطين . وأقدم ما وصلنا من أخبار الفراعنة عن هذه العلاقات تلك الكتابة التي عثر عليها منذ عهد الفرعون (سنيفرو) أول ملوك السلالة الرابعة حوالي 2700 ق . م التي تشير إلى شحن أربعين سفينة من خشب الأرز اللبناني إلى مصر .

وأقدم ذكر لحملات المصريين على بلاد كنعان ورد في كتابة عثر عليها من عهد الفرعون (بيبي) الأول ثالث ملوك السلالة السادسة حوالي 2350 ق . م ، وهي منقوشة على قبر قائد إحدى هذه الحملات ، وهو يدعى (أوني) فدوّن هذا القائد انتصاراته على جماعات البدو التي كانت تهاجم الكنعانيين . وهناك ما يدل على أن مصر تمكنت من بسط نفوذها على جميع بلاد كنعان في القرن التاسع عشر ق . م .

وجاء في الكتابات المصرية القديمة أيضاً أن الملك سيزوستريس الثالث صعد على أرض كنعان في حوالي 1850 ق . م واستولى على المدينة المسماة (سكمن) وقد رجح بعضهم أن المقصود بها مدينة شكيم (نابلس) حالياً .

ومن أهم ما تركه فراعنة مصر القدماء من الأوصاف لبلاد كنعان أيضاً كتابات الفاتح المصري الشهير تحوتمس الثالث (1503 ـ 1449) ق. م وذلك في أعقاب طرد المصريين الهكسوس من بلادهم. فورد في مدوناته أنه قام بسبع عشرة حملة على سورية وفلسطين، فامتدت تخوم فتوحاته في الشرق إلى جبال الأمانوس شمالاً. ومما ورد في كتاباته جدول بأسماء 118 مدينة وقرية يعتقد أنها المدن التي فتحها في بلاد كنعان.

ويرى بعض الباحثين أن الكنعانيين والأموريين يشكلون محوراً رئيسياً في المنطقة. ويرون أن تاريخ استقرار كنعان هو عام 2500 ق. م على الساحل، بينما استقر الأموريون في الداخل، وبدأ وجودهم يعرقل سير القوافل المصرية، ما أشعل الحرب بين مصر وفلسطين مدة طويلة، وحسمت في عهد سرجون الأكادي بتحرير الفلسطينيين. ومع ضعف الدولة الأكادية عادت مصر لتسيطر عليها واشتغلت الثورات فيها على عهد نارام سن.

ويرون أن الكنعانيين والأموريين ظلوا يتصارعون مع الوجود المصري، وكانوا يقفون دوماً مع الدولة القوية في الشرق ضد الأسر الفرعونية التي كانت تمد يدها على فلسطين.

وترى بعض الدراسات التاريخية أن القدس خضعت للنفوذ المصري في عهد تحوتمس، وقد ترك فيها حامية من الخيالة والعجلات الحربية أقامت في المنطقة الواقعة شرقي المسجد الأقصى التي تسمى إسطبل سليمان. ويقول الباحثون: (إننا نجد اسمها في القائمة المصرية على أنها قادش أي قدس. وقادش الكنعانية التي تقع شمال سوريا. وتظل المصادر المصرية لا تذكر المدينة إلا بهذا الاسم. إلا أننا نجد ملوك الكنعانيين عندما كانوا يكتبون إلى ملوك مصر بعد عصر تحوتمس يسمونها أور شاليم. وفي خطابات ملك القدس إلى الملك أخناتون ورد اسم بلاده على أنها (مات أورسالم) أي أرض السلام.

وقد اصطحب تحوتمس الثالث معه عند ذهابه إلى القدس التابوت الذي وضع فيه تمثالاً (لآمون) ذلك أن التقاليد المصرية كانت تقتضي بأن يقوم الملك ببعض الطقوس الدينية كل صباح. ومن الطبيعي أن يترك الملك التابوت فوق الأرض التي كان يعتبرها أهل البلاد مقدسة، وهذا ما فعله في العديد من المدن السورية.

ونحن نعلم أن المصريين بنوا معابد مصرية في كل مدينة كنعانية وسورية كانت لهم فيها حامية عسكرية مثل القدس ومجدو وبيسان. وعلى ذلك يكون أول معبد بُني في تلك المدينة شيّده المصريون. وحتى تسمية الأرض المقدسة بجبل صهيون إنما كانت بناء على المصادر المصرية ولا علاقة لها باللغة العبرية، ذلك أن المصريين كانوا يطلقون كلمة (أون) أو (عيون) على المدينة المقدسة[1].

القدس وإبراهيم الخليل عليه السلام:

هل ثمة علاقة بين المدينة المقدسة وإبراهيم النبي عليه السلام؟

يتفق أكثر الباحثين والمؤرخين على أن إبراهيم عليه السلام هاجر بأمر ربه من بلده الكلداني إلى منطقة فلسطين في القرن التاسع عشر ق.م، وبعضهم قرّب هذا التاريخ إلى القرن السابع عشر. والواقع أن الأدلة الأثرية على هجرته تكاد تكون مفقودة. ويعتمد الباحثون في تقديراتهم على تحليلات واستنتاجات تقع في باب الافتراضات ليس أكثر.

ويبقى أمام الكثيرين ما جاء في نصوص التوراة وتقديراتها حول زمن إبراهيم وهجرته، إضافة لذلك فإن القرآن الكريم لم يشر لا من قريب ولا من بعيد إلى زمن هجرة هذا النبي، بل تحدث عن الهجرة في سياقها الديني وغاياتها العقيدية، والصراع الذي قام بين عقيدة التوحيد الإبراهيمية وبين الوثنية التي كانت قائمة آنذاك في أكثر الحضارات العربية.

---

(1) أحمد عثمان. مقال صحيفة الحياة 4/ 2/ 1994.

وباعتبار أن شخصية إبراهيم أكثر وضوحاً لدى العقائد أو الرسالات السماوية فإن الحديث عنه يمكن أن يوضح كثيراً من الحيثيات المتعلقة بأرض فلسطين والقدس بالذات.

يتفق الخبراء على أن إبراهيم الخليل عليه السلام سلك طريق الفرات الأيمن في رحلته من أور إلى حرّان، وهي الطريق التي تسلكها القوافل، وكانت مع إبراهيم جماعته وممتلكاته من قطعان الأغنام والمعزى والحمير والجمال، فيكون قد قطع في هذه الرحلة 560 ميلاً (900 ك.م) بين أور وحران. فمر أولاً بمدينة ماري العربية وهي عاصمة العموريين الذين ظهرت منهم السلالة البابلية الأولى والملك حمورابي الشهير. ثم ذهب إلى حاران (حران الحالية) وبعد ذلك غادر حران متوجهاً إلى دمشق بطريق (تدمر)، ومنها إلى فلسطين قاطعاً مسافة 600 ميل (960 ك.م) أخرى بين حران وكنعان[1].

وقد ذهب الأستاذ لورد في كتاب (قصة الكتاب المقدس) إلى أن الطريق التي سلكها إبراهيم الخليل كانت بمحاذاة الجانب الأيسر من نهر الفرات. وهذا غير محتمل لكثرة العوارض، فضلاً عن أن جميع المدونات القديمة تشير إلى أن الطريق العام طريق القوافل كان يسير بمحاذاة الجانب الأيمن من الفرات مارّاً بمدينتي (هيث وعانة)، ثم ببلدة (ماري) عاصمة العموريين الشهيرة، وبعد أن يمر بأبي كمال والميادين ودير الزور يعبر عند الرقة، ثم يصعد شمالاً من نهر البليخ حتى يصل إلى حران[2].

وبذلك يكون إبراهيم الخليل عليه السلام قد قطع مسافات طويلة عبر البوادي متنقلاً بين القبائل العربية من منطقة إلى أخرى في متاهات شاسعة من الجزيرة العربية محتكاً بمدنها وقراها وسكانها ورؤساء عشائرها.

---

(1) أحمد سوسة ـ العرب واليهود في التاريخ ص 256 ـ 257.

(2) المصدر السابق ص 257.

ومن الواضح أن إبراهيم لم يدخل أرض كنعان غازياً أو محارباً، بل جاء متنقلاً بين العراق مسقط رأسه وبين المستوطنات العربية السامية على ضفاف وادي الفرات.

وحين ندرس علاقة النبي إبراهيم بالقدس وبأرض فلسطين نجد أمامنا ثلاثة مصادر تتحدث عنه: المصدر الأول هو كتاب التوراة؛ والمصدر الثاني المدونات التاريخية والأثرية، والمصدر الثالث هو القرآن الكريم.

ويمكن في هذا الإطار أن نبحث عن أسباب الهجرة، وأسباب اختياره أرض كنعان. والأوضاع الدينية والفكرية التي كانت سائدة في عصره، خاصة في منطقة أور بلده الأصلي، ومنطقة فلسطين باعتبارها المنطقة التي استقر فيها ثم انطلق إلى ما حولها حتى وصل إلى مكة.

إبراهيم يبدأ رحلة المهاجرة من بلده (أور) باتجاه أرض كنعان بعد صراع عقيدي بينه وبين قومه الوثنيين. ويتضح من خلال نص التوراة أن الرب أمر إبراهيم بالذهاب من بلده وبلد أبيه إلى أرض أخرى دون أن يتحدث عن الصراع الذي دار بينه وبين قومه.

(وقال الرب لأبرام أذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك وتكون بركة..) ثم تقول التوراة واجتاز أبرام في الأرض إلى مكان شكيم إلى بلوطة ممراً. وكان الكنعانيون حينئذ في الأرض، فظهر الرب لأبرام وقال: لنَسْلِك أعطي هذه الأرض، فبنى هناك مذبحاً للرب الذي ظهر له) التكوين.

أما في القرآن الكريم فيرد قوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿فَآمَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الآية 26.

ويقول تعالى في سورة الأنبياء الآية 71: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ فإبراهيم يصل إلى شكيم (نابلس) ويقيم فيها مذبحاً للرب الذي ظهر له حسب نص التوراة.

وعلى هذا فإن أول إقامة إبراهيم في فلسطين كانت في نابلس وليس في سواها. وليس للقدس أية علاقة بذلك، وهذا ما افترضته التوراة، ولكن حتى هذا الافتراض يلغي أية صلة بين إبراهيم والقدس بوصفها مكاناً مقدّساً. ولم يرد ذكر أورشليم في هذا السياق إلا بعد فترة مكوث إبراهيم مدةً لا ندري كم دامت، وذكرها جاء في سياق الحديث عن لقاء إبراهيم بـ ملكي صادق ملك أورشليم الذي كان موحداً، وقد بارك إبراهيمَ باسم الرب الواحد، ومضى إبراهيم في حال سبيله دون أية إشارة لمكانة القدس بالنسبة له.

وترى التوراة أن إبراهيم تنقل كثيراً في المنطقة فزار مدينة جرار، ثم سافر إلى مصر، وعاد منها إلى أرض كنعان واستقر في منطقة الخليل، وتورد التوراة أن سارة زوجة النبي إبراهيم عندما ماتت جاء إبراهيم يبكي لملك الخليل الحثي كي يبيعه قطعة أرض يدفن فيها زوجته، وتورد أنه اشترى حقلاً فيه مغارة المكفيلة حيث دفن فيها سارة وصارت ملكاً له. وعندما مات دفن فيها.

وفي القرآن الكريم يتضح أن إبراهيم سار من الأرض المباركة باتجاه الجنوب حتى وصل مكة فبنى الكعبة هو وابنه إسماعيل.

يستوقفنا في هذا السياق عدة نقاط تحتاج إلى توقف وتوضيح:

1 ـ ما هي الأرض المباركة؟ وأين حدودها؟

2 ـ لماذا أُمر إبراهيم ببناء الكعبة ولم يؤمر ببناء معبد شبيه بها في القدس؟

3 ـ ما موقف التوراة من بناء إبراهيم للكعبة وكيف تربط بين القدس وإبراهيم؟

لقد نجى الله إبراهيم ولوطاً إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين.

فهذه الإشارة إلى الأرض المباركة تجعلنا نتساءل: أين هي الأرض التي بارك الله فيها للعالمين؟ أهي فلسطين أم مكة؟ أو كلاهما معاً باعتبارهما مسرح الأحداث القادمة مع النبي إبراهيم عليه السلام.

تشير التوراة إلى أن هجرة إبراهيم كانت إلى أرض كنعان، وإلى أن الكنعانيين كانوا موجودين في الأرض، أما القرآن فيشير إلى أن الله نجاه ولوطاً إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين.

فاختيار أرض كنعان داراً لهجرة إبراهيم ليس اختياراً بشرياً تم من قبل إبراهيم، بل هو اختيار رباني تُكشف جوانبه ويلقي مزيداً من الضوء على أسبابه:

1 ـ الأرض التي بارك الله فيها للعالمين كانت ممهدة لتلقي تعاليم إبراهيم الداعية إلى التوحيد، ولهذا السبب لن يجد إبراهيم أعداءً لعقيدته في هذه الأرض المباركة.

2 ـ إبراهيم عليه السلام نادى بديانة التوحيد، وهو مكلف من الله سبحانه بتبليغ رسالته أينما ذهب وأينما حل، ولن تتوقف دعوته بمجرد عناد قومه ورفضهم لها.

3 ـ اختيار الله سبحانه وتعالى مكة المكرمة منذ الأزل لتكون محجاً للناس، ولذلك كلف إبراهيم ببناء الكعبة، ولا يتم بناؤها دون هجرة النبي الكريم من بلده إلى مكة.

4 ـ إن اختيار الله يأتي ضمن ترتيب رباني للتاريخ القادم الذي سيشهد صراعاً مريراً بين التوراتيين الذين يدعون نسبهم إلى إبراهيم، وبين المسلمين الذين اتبعوا ملة إبراهيم ودينه، وهم أصحاب الأرض التي سيحصل الصراع بسببها. وهذا الترتيب يأتي ضمن سياق الصراع الدائم بين تمام الحق وتمام الباطل.

وتجدر الملاحظة هنا إلى أن الأنبياء كافة حاربهم أقوامهم فهاجروا يحملون دعوتهم لا يتوانون عن نشرها، والرسول محمد صلى الله عليه وسلم، هاجر من بلده مكة إلى يثرب يبشر بدعوته إلى أن عمّت. وموسى عليه السلام، هرب من مصر إلى سيناء وإلى مدين ثم عاد إلى فرعون ثم رجع إلى سيناء، وكل تنقلاته كانت في سبيل الدعوة للإيمان بالإله الواحد، وكذا الأنبياء وكذا منهج دعوتهم.

وعودة إلى مصطلح الأرض المباركة لنرى أن الحديث القرآني عنها جاء عاماً لم يحدد ملامحها ولا حدودها.

والواقع أن ذهاب إبراهيم من الخليل إلى مكة بأمر من ربه يشير إلى أن الأرض المباركة هي أوسع جغرافياً من فلسطين، فهي تمتد على قدر ما سافر إبراهيم وعلى قدر ما عمل من أعمال في خدمة عقيدة التوحيد. فمكة جزء من هذه الأرض المباركة، ولو لم تكن كذلك لما أمر إبراهيم ببناء الكعبة فيها، أو لكان أمر الله يتعلق ببناء معبد آخر يرمز لديانة التوحيد.

وتورد كتب الأخبار أن إبراهيم سار إلى مكة، فلما وصلها وجد ابنه إسماعيل يصلح نبلاً له وراء زمزم، فقال لإسماعيل: إن الله قد أمرني أن أبني بيتاً له، فقال إسماعيل: فأطع ربك، فقال إبراهيم: قد أمرك أن تعينني على بنائه، فقال: إذن أفعل فقام معه فجعل إبراهيم يبنيه وإسماعيل يناوله الحجارة. ثم قال إبراهيم لإسماعيل: إيتني بحجر حسن أضعه في الركن فيكون للناس علماً فأخبره جبرائيل بالحجر الأسود فأخذه ووضعه موضعه[1].

وهذا هو الثابت في كل المصادر والمراجع العربية والإسلامية وكتب التفاسير. أما قصة بناء الكعبة على يد إبراهيم وابنه إسماعيل عليه السلام، فإنها تبدأ بأمر رباني يصدر من الله لإبراهيم. إبراهيم يترك منطقة سكنه ويتوجه نحو الجنوب أي إلى مكة حيث ترك هاجر وولدها إسماعيل أول مرة عندما كان إسماعيل طفلاً.

ومباركة الله للبيت الحرام ترد في الآيات القرآنية الكريمة. فيقول تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ آل عمران 96.

فهجرة إبراهيم الأولى من أور الكلدانيين كانت إلى الأرض المباركة التي تضم الخليل أو فلسطين ومكة وما بينهما.

التوراة لا تعترف برحلة إبراهيم عليه السلام إلى مكة وبناء الكعبة:

ورد في سفر التكوين التوراتي أن إبراهيم قد أمر هاجر وابنه إسماعيل بالمغادرة، وباختصار، تورد أنهما وصلا إلى بئر السبع، واختفت معالم رحلتهما عند

(1) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ المجلد الأول ص 105 ـ 106.

هذا الحد ولا تأتي بأي خبر عن مكة وبناء الكعبة فتقول: (وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية وكان ينمو رامي القوس وسكن في برية فاران) سفر التكوين الإصحاح 21/ 21 وفاران حسب بعض المصادر تقع في جنوب فلسطين قريباً من خليج العقبة. ولا تتحدث التوراة بعد ذلك عما جرى مع إسماعيل وأين استقر بعد ذلك.

والواقع أن التوراة تنكر أي صلة بين إسماعيل ومكة، فتقطع بذلك من الأساس صلة أبيه بالكعبة. ومن المعروف أن الكعبة أقدم بيت مبارك، بني لعقيدة التوحيد، وليس هناك أي مكان آخر يماثل في قدسيته البيت الحرام.

ولا شك في أن بناء إبراهيم الكعبة برفقة ابنه إسماعيل سيتناقض مع الرؤية العقيدية لليهود، بعد أن حرفوا التوراة وانحرفوا عن عقيدة التوحيد.

وقد دلّت كل الدراسات أنّ التوراة قد دوّنت بعد موسى بـ حوالي 500 عام أي حوالي 700 ق. م وفي هذا الوقت نعرف أن اليهود قد تعرضوا للعقاب الجماعي والسبي على يد البابليين والآشوريين، وأخذ الشعور بالعزلة والعنصرية يسيطر على عقول اليهود ونفوسهم. وحتى ينفوا أية صلة بالمنطقة العربية وشعبها ومقدساتها حاولوا، جاهدين، ربط قبائلهم بإبراهيم دون أن يدركوا أن بناء الكعبة مكاناً مقدساً هو أكثر الرموز والحقائق المادية المشيرة لشخصية إبراهيم ووجوده وعلاقته بديانة التوحيد.

ولو كان اليهود يتبعون فعلاً عقيدة إبراهيم لقاموا بزيارة الكعبة وتقديسها قبل غيرهم. والحقيقة أن إبراهيم في التوراة لا يصنع ما يثير العجب في فلسطين ـ الخليل ـ ولم يرتبط اسمه بأي مقدس في أرض كنعان ـ بل كان ارتباطه جغرافياً واجتماعياً بعد أن حل ضيفاً على أهل تلك الأرض. أو بعد أنْ أمر بنشر عقيدة التوحيد في مساحات واسعة من وسط الوطن العربي، بدءاً من أرض بلاد الرافدين وأرض كنعان، ثم قلْب الجزيرة العربية.

ومن خلال رحلة إبراهيم وتجواله نستطيع أن نقول: إن المناطق التي تجوّل فيها النبي لم تكن غريبة بالنسبة له؛ فهو ابن المنطقة ومهمته النبوية كانت أوسع من مكان

صغير محدد. لقد تجاوزت دعوته قطراً محدوداً وكانت فلسطين وسوريا والعراق والجزيرة حتى مصر مجالاً جغرافياً لنشر دعوته وعقيدته. وبناؤه الكعبة كان يقصد من ورائه ربط الموحدين برمز ديني يجمع أبناء المنطقة كافة ويمهد لانتشار الدعوة عالمياً. والذي يلفت النظر أن إبراهيم عليه السلام، تجول كل هذه التجوّلات دون أن يجد من الأقوام من يرفض دعوته، أو يلاحقه أو يصطدم معه. ويستنتج أن اللهجات العربية آنذاك لم تكن قد تباعدت بعضها عن بعض، فكان إبراهيم الخليل يفهم لسان أهل البلاد التي توجه إليها؛ إذ كانت كلها تتكلم بلغة واحدة[1].

وقد أظهر القرآن الكريم طبيعة الديانة التوحيدية التي كلف إبراهيم عليه السلام، بتبليغها، وقد بقيت آثار هذه الديانة منتشرة في قلب الجزيرة العربية حتى بعثة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وقد كان ورقة بن نوفل أحد هؤلاء الحنيفيين الذين ابتعدوا عن عبادة الأصنام وتبعوا ملة إبراهيم. ولم تشر أيٌّ الدراسات إلى وجود حنيفيين في غير الجزيرة العربية، وقد ارتبط هؤلاء الحنيفيين بالكعبة بوصفها مكاناً مقدساً ولم يرتبطوا بأي مكان مقدس آخر.

وقد كوّن الحنفاء في مجتمعهم حالة رفض وتمرد على كل ما يحيط بهم من طقوس، ولما عجزوا عن تغيير حالة قومهم، واصطدموا بمحيطهم عزلوا أنفسهم على الرغم من أنهم عُزِلوا عن مكة، فكونوا خارجها ما يشبه ندوة فكرية في مكان يدعى حراء، كانوا يتجمعون فيه فيتناقشون ويقرأون الكتب ويتعبدون.

(لقد كان أمام أولئك الأحناف طريقان للإيمان بديلاً عن الوثنية، فإما النصرانية وإما دين إبراهيم بعد ما كانت اليهودية قد أغلقت أبوابها وأبواب دعوتها بوجه الطامحين للدخول فيها. كانت النصرانية بالنسبة لأكثرهم معقدة بجدليتها وفلسفتها مع ما كان يبدو على بعض طقوسها من شبهة وثنية أبعدت الكثير منهم عنها، بينما كانت ميزة دين إبراهيم بالنسبة لبعضهم بأنه لم يكن ديناً غريباً عن أذهانهم. فإبراهيم

(1) أحمد سوسة: العرب واليهود في التاريخ ص 255 ـ 256.

ليس غريباً عن العرب عامة وقريش خاصة، ودين إبراهيم دين بسيط التعاليم، قوامه التوحيد بعيداً عن التعقيد الفلسفي، ولذلك كان طبيعياً جداً أن يكون معظمهم قد انتهى حنيفياً)[1].

وعقيدة الأحناف كما أجمع عليها الإخباريون تستند إلى حج البيت الحرام. واتباع الحق واتباع إبراهيم فيما أتى من الشريعة، الإخلاص وحده والإقرار بالربوبية والإذعان للعبودية.

يقول ول. ديورانت: (كانت في البلاد شيعة من العرب تدعى بالحنيفية أبت أن تقر بالألوهية لأصنام الكعبة، وقامت تنادي بإله واحد يجب أن يكون البشر عبيداً له وأن يعبدوه راضين)[2].

أما البروفسور بلياييف فقال: نشأت الحنيفية عقيدة خلقية ودينية في اليمامة، وانتشرت في غربي الجزيرة العربية حيث وقع الكثير من سكانها تحت تأثير التوحيد والزهد والتقشف[3].

الكنعانيون.. عقائدهم.. معابدهم..:

ارتبط الإنسان بالمعبود منذ الأزل، وحتى لا يبقى هذا المعبود محصوراً في العقل أو في الوجدان أو الوعي، أراد الإنسان أن يجعل في الأرض رموزاً مادية يضفي عليها نوعاً من القداسة المرتبطة بمعبوده.

ومنذ فجر التاريخ أوجد الإنسان معابد صغيرة وكبيرة وملأها بالرموز الحجرية أو الطينية أو الخشبية، وجسّد معبوده حسب تصوره في أشكال عدة.

ومع التطور الاجتماعي والاستقرار البشري أصبح لكل شعب أو لكل أمة معابدها ومقدساتها ورموزها التعبدية المادية والمعنوية.

---

(1) شريف محمد هاشم ـ الإسلام والمسيحية في الميزان ص 39.

(2) قصة الحضارة الجزء 3 ص 24.

(3) شريف محمد هاشم ـ الإسلام والمسيحية في الميزان ص 46.

والشعب الكنعاني الذي حمل معه من جنوب الجزيرة العربية معتقدات وعقائد، عمل من فجر التاريخ على ترسيخ عقائده من خلال إقامة المعابد في قراه ومدنه الفلسطينية.

وتسعفنا الميثولوجيا الكنعانية بمقولات وإشارات كثيرة تدلنا على ما كانوا يعتقدون وعلى طريقة تفكيرهم الديني، وطبيعة بناء معابدهم والطقوس التعبدية التي كانت ترافق احتفالاتهم الدينية وصلواتهم وقرابينهم.

وتكثر المعابد والهياكل في أرض كنعان حتى إنها انتشرت تقريباً في كل القرى والمدن والجبال، ووجدت تماثيل في كل معبد ترمز للآلهة التي عبدوها. وظهر أن لكل إله معبداً سواءٌ أكان هذا الإله يمثل الأنوثة أم يمثل الذكورة. وجميع هؤلاء الآلهة كانوا أبناء (عشيرة)، ومن المعتقدات الكنعانية أن حرق المعبد خطيئة كبيرة، وكانت معابد أولاد الإلهة (عناة) تقام في الساحات العامة من المدينة أو البلدة.

ويعتقد أن قصر الملك معبد تقام فيه الشعائر. فقد ورد في النصوص الكنعانية أن القصر الملكي يعج بالتماثيل التي ترمز لأفراد الآلهة، وهناك إشارات لوجود تمثال للإله (إيل) وتمثال يشير إلى الإلهة (عناة)، وكذلك بقية الآلهة وجميعها داخل القصر[1]، وكان للإله بعل معبد كبير في نابلس. حتى إن الغزاة العبرانيين عبدوه وصلوا له في ذلك المعبد وذلك في زمن القضاة.

ومن أهم معابد الكنعانيين معبد في بيسان. وقد ورد أن الفلسطينيين عندما انتصروا على الغزاة اليهود وردوهم قتلوا ملكهم شاؤول وعلقوا رأسه في المعبد[2]. وكان معبد للإله بعل في عقرون شمال فلسطين.

أما عن بناء المعابد فقد ورد في نصوص أوغاريت أن المعبد يحاط بأعمدة كبيرة الحجم، وهي غالباً من الحجارة الكلسية، وقد بني معبد لبعل في مدينة المجدل الواقعة

---

(1) مفيد عرنوق ـ اللآليء نصوص من الكنعانية ص 87.

(2) ورد ذلك في التوراة في سفر صموئيل الأول.

قرب غزة في جنوب فلسطين، وكذلك بني معبد آخر لبعل في وادي جبعون وأقيم فيه عدد من الطقوس، ويعتقد أن مكانه اليوم رأس السناة[1]، وورد أن الفلسطينيين كانوا يمارسون طقوس إقامة الأصنام والنصب في الغابات، وهي تقتضي على ما يبدو إقامة نصب تذكارية للملوك المتوفين.

وقد ورد في نصوص أوغاريت أن معبداً أقيم للإله إيل بين نابلس والقدس. لكنه كان يغص بالتماثيل والأصنام التي تمثل الآلهة المعاونة للإله الأكبر. كما عثر على معبد آخر للإله بعل في جبل الكرمل وبعض مناطق الساحل الشمالي لفلسطين، إضافة للمعبد الكبير الذي أقيم للإله بعل في أوغاريت زمن الملك الكبير.

وتشير النصوص إلى أن هذه المعابد كانت تغص بالكهنة والنساء المقدسات، وقد أدخلت التوراة أحاديث عن هؤلاء النسوة حيث وصفتهن بأنهنّ يقدمن أنفسهن للرجال إكراماً لبعل. ومن أهم الكهنة الذين ورد ذكرهم في لوحات أوغاريت الكاهن الأكبر (إيلو ملكو) وهو كاهن أوغاريت، وهو الذي دوّن اللوحات الكنعانية، وفيها تاريخ الكنعانيين وأساطيرهم. أما القدس فلم يرد في الأساطير الكنعانية أو في المكتشفات الأثرية أن معبداً مهماً كان موجوداً فيها.

والاستنتاج الوحيد الذي يمكن أن نقدمه في هذا الإطار أن الملك ـ ملكي صادق الذي تحدثت عنه التوراة وتحدث عنه أحمد سوسة في كتابه العرب واليهود في التاريخ، قديساً صالحاً موحِّداً، والتقى النبي إبراهيم وباركه الله العلي القدير قد يكون بنى معبداً خاصاً في القدس باعتباره كان ملكاً عليها. ولا شك في أن كل ملك أو حاكم يربط نفسه بمقدَّس رمزي أو مادي مهما كان نوعه توحيدياً أو وثنياً، ويمكن أن يكون ملكي صادق على صلة بهذا المعبد الذي أقيمت طقوس عبادته فيه. وحول القدس وجدت مناطق أو قرى أقيمت فيها معابد للآلهة الكنعانية كقرية

---

(1) قاموس الكتاب المقدس.

عناتا وقرية بيت إيل . . وهذه الأسماء تدل على الآلهة التي عبدها الشعب الكنعاني في وقت من الأوقات .

وقد عرف الكنعانيون ما يسمى بالمحرقات ، وهي أماكن يختارها الكنعاني في مرتفعات الجبال والتلال ليذبح عندها قرابينه ويقدم أعطياته للآلهة ، وقد أوردت التوراة أن إبراهيم وغيره قدموا القرابين عند هذه المحرقات غير أن المصادر جميعها حتى التوراة لم تورد شيئاً عن معبد معين في القدس يتميز عن غيره . والراجح أن مرتفعات الجبال المحيطة بالقدس استخدمت محرقات غير ثابتة .